تصدير
محمد سَعيد العَريان

« ربَّما عابوا السُّموَّ الأدبيَّ بأنَّه قليل ، ولكنَّ الخير كذلك ، وبأنَّه مخالفٌ ، ولكنَّ الحقَّ كذلك ، وبأنَّه محيِّرٌ ، ولكن الحسن كذلك ؛ وبأنَّه كثير التَّكاليف ، ولكنَّ الحرِّيَّة كذلك » .

الرَّافعيُّ

هذا كتابٌ آخرُ كتاب أنشأه الرَّافعيُّ ؛ ففيه النَّفحةُ الأخيرة من أنفاسه ، والنَّبْضةُ الأخيرة من قلبه ، والومضَة[1] الأخيرة من وجدانه . . ! أفرأيتَ اللَّيلَ المطبق[2] كيف تتروَّح نسماتُه الأخيرةُ بعبير[3] الشَّجر ، وتتندَّى أزهارُه في نسيم السَّحر ؟

ألا وإنَّه إلى ذلك أوَّل كتابٍ أنشأه على أسلوبه ، وطريقته ، فقد عاش الرَّافعيُّ ما عاش يكتب ما يكتب لنفسه ، وينشره لنفسه ، لا يعنيه ممَّا يكتب ، وينشر إلا أن يُحيل فكرةً في رأسه ، أو لمحةً في خاطره ، أو خَفْقةً في قلبه ؛ إلى تعبيرٍ في لسانه ، أو معنىً في ديوانه ، ولا عليه بعد ذلك أن يتأدَّى معناه إلى قارئه كما أراده ، أو يُغلقَ دونه ، فلمَّا اتَّصل سببُه بمجلَّة « الرِّسالة »[4] رأى لقارئِه عليه حقّاً أكثر من حَقِّ نفسه ، فكان أسلوبُه الجديد الَّذي أنشأ به هذا الكتاب .

على أنَّ هذا الكتاب ـ وشأنه ما قدَّمْت ـ يجمع كلَّ خصائص الرَّافعيِّ الأدبيَّة متميِّزةً بوضوحٍ ؛ فمن شاء فليقرأه دون سائر كتبه ، فسينكشف له الرَّافعي في سائر

---

(١) « الومضة » : وَمَضَ البرقُ : لمع لمعاناً خفيفاً .

(٢) « الليل المطبق » : أطبق الليل : أظلم .

(٣) « عبير » : أخلاط من الطيب .

(٤) اتصل الرافعي بمجلة الرسالة قبيل موته بثلاث سنين ، وكان ذلك أول اشتغاله بالصحافة ، فلم يكن له قبلها صلة « صحافية » بجريدةٍ من الجرائد ، أو مجلة من المجلات ، وقد كان لذلك أثره في أسلوبه من قبلُ ومن بَعْدُ ، إلى أسباب أخرى . وانظر : « فترة جِمام » و« عمله في الرسالة » و« نقلة اجتماعية » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

كتبه . والأديبُ الحقُّ تستعلِن نفسُه بطريقتها الخاصَّة في كلِّ زمانٍ ومكان على اختلاف أحواله ، وما يحيط به .

* * *

والرَّافعيُّ عند طائفةٍ من قرَّاء العربيَّة أديبٌ عَسِرُ الهضم ، وهو عند كثيرٍ من هذه الطَّائفة متكلفٌ لا يَصْدُر عن طبعٍ ، وعند بعضِهم غامضٌ معَمًّى لا تَخْلص إليه النَّفس ؛ ولكنَّه عند الكثرة من أهلِ الأدب ، وذوي الذَّوق البيانيِّ الخالص أديبُ الأمَّة العربيَّة المسلِمة ، يعبِّر بلسانها ، وينطق عن ذات نفسها ؛ فما يعيب عليه عائبٌ إلا مِنْ نقصٍ في وسائله ، أو كُدْرةٍ[1] في طبعه ؛ أو لأنَّ بينه وبين طبيعة النَّفس العربيَّة المسلمة ـ التي ينطق الرَّافعيُّ بلسانها ـ حجاباً يُباعِدُ بينه وبين ما يقرأ روحاً ، ومعنىً !

فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرَّافعيُّ ليتذوَّق أدبه ، فيأخذ عنه ، أو يحكم عليه ؛ فلْيستوثقْ من نفسه قبلُ ، ويستكمل وسائله ، فإن اجتمعت له أداتُه من اللُّغة ، والذَّوق البيانيِّ ، وأحسَّ إحساسَ النَّفس العربيَّة المسلمة فيما تحبُّ ، وما تكره ، وما يخطر في أمانيها ؛ فذَوْقُه ذوقٌ ، وحُكمه حكم ، وإلا فليُسقِط الرَّافعيَّ من عداد من يقرأ لهم ، أو فليُسقِطْ نفسَه من عداد هذه الأمَّة !

* * *

على أنَّه إذا حقَّ لنا أن نرتِّبَ كتُبَ الرَّافعيِّ ترتيباً يُعين قارئه على تذوُّقه ، أو دراسة أدبه ، فإنَّ « وحي القلم » في رأس هذا الثَّبت . هو آخِر ما أنشأ ، ولكنَّه أولُ ما ينبغي أن يقرأ له ؛ وإنَّ البدء لحقيقٌ أن يعوِّد قارئه أسلوبَ الرَّافعيِّ ، فيَسْلَس له صَعْبُه ، وينقاد !

* * *

ذلك مجمل الرَّأي في أسلوب هذا الكتاب ، على أنَّ قارئه قد يقف منه عند مواضع ، فيسأل نفسه : كيف تأتَّى للرَّافعي أن يعالج موضوعه على هذا الوجه ؟ وكيف تهيَّأ له ذلك المعنى ؟ وأين ، ومتى اجتمعت له هذه الخواطر ؟ وفي أيِّ أحواله كان يكتب ؟ وعلى أيِّ نسقٍ كان يؤلِّف موضوعه ، ويجمع أشتاته ، ويحشد خواطره ، ويصنِّف عبارتَه ؟ . . .

---

(١) « كدرة » : هي اللون الذي يميل إلى السواد أو الغُبْرة .

. . . . ولست أرى من حقِّي أن أطيل القولَ هنا في هذا الباب ، وقد ذكرتُه هناك[١] وإنَّ موضوع الكتاب لَهُوَ الحقيق بالدَّرس ، والعناية .

والكتاب كما قد يُشعِر به عنوانُه ، هو مجموعة فصولٍ ، ومقالاتٍ ، وقصصٍ من وحي القلم ، وفيض الخاطر في ظروفٍ متباينةٍ ، وأكثره ممَّا كتبه لمجلة الرِّسالة بين سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٧ ؛ ولكلِّ فصلٍ ، أو مقالةٍ ، أو قصَّةٍ من هذه المجموعة سببٌ أَوحى إليه موضوعَها ، وأملى عليه القول فيها ، ولقد كنت على أن أُثبِتَ عند رأس كلِّ موضوعٍ منها باعِثه ، وحادثتَه ، لعلَّ من ذلك نوراً يكشف عن معنى مغلقٍ ، أو يوضِّح فكرةً يكتنفها بعض الغموض ؛ ولكن بعضَ الضَّرورات قد ألزمتْني أن أقصد[٢] في البيان هنا اكتفاءً بما بينتُه في موضعه ، وأشرت إليه في هامش موضوعه .

ولقد يقرأ القارئ بعض القِصص في هذا الكتاب ، فيسأل عند بعضها : أهذا حقٌّ يرويه ، أم باطل يدَّعيه ؟ ويسأل عند بعضها : أهذا ممَّا ينقلُ من مأثورات الأدب ، والتاريخ القديم ، أم إنشاءٌ ممَّا يُبدعه الخيال ، وتُوشيه[٣] الصَّنعة ؟ ثمَّ يقرأ رأيَ الرَّافعي في القصَّة ، وكتَّاب القصَّة[٤] فيقول : أين رأيه من حقيقته ؟ وأين عمله مِن دَعْواه ؟

ولهذه القصص حديثٌ يطول ، ولكن حسْبي أن أقول : إنَّ الرَّافعيَّ وإن هجر القصَّة ، ولم يحفل بها زماناً ، فقد كانت القصَّة في أدبه ، وفي طبعه[٥] .

* * *

وكما قلت من قبل : إنَّ هذا الكتاب يجمع كلَّ خصائص الرَّافعيِّ الأدبيَّة متميزةً بوضوحٍ في أسلوبه ، كذلك أقول هنا : إنَّه يجمع كلَّ خصائصه العقليَّة ، والنَّفسية متميزةً بوضوحٍ في موضوعه ؛ ففيه خُلقه ودينُه ، وفيه شبابُه وعاطفتُه ، وفيه تزمُّته

---

(١) انظر : « فترة جِمام » و« نقلة اجتماعية » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « أقصد » : أتوسَّط دون إفراط أو تفريط .

(٣) « توشيه » : وَشَى الثوب : نَقَشَهُ ، وَنَمْنَمَهُ ، وحسَّنَهُ .

(٤) الجزء الثالث من « وحي القلم » . (س) .

(٥) انظر : « فترة جِمام » و« قصص الرافعي » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

ووقارُه ، وفيه فكاهته ومَرَحُه ، وفيه غضبه وسخطه ، فمن شاء أن يعرف الرَّافعي عِرفانَ الرَّأي ، والفكرة ، والمعاشرة ؛ فليعرفه في هذا الكتاب .

* * *

وهذه هي الطَّبعة السَّابعة لهذا الكتاب في جزأيه الأول والثَّاني ، أتولاها كما توليتُ الطَّبعةَ الأولى في حياة المؤلف .

أمَّا الجزء الثَّالث ؛ فقد خلَّفه المؤلف ـ رحمه الله ـ على مكتبه قصاصاتٍ من صحفٍ، وصفحاتٍ من كتبٍ، ومجلاَّتٍ ، فعاد كتاباً بين دفَّتين ؛ وقد رتَّبتُ فصوله على ما بدا لي ؛ إذ لم أجدْ فيما خلَّفَ المؤلف من أوراقٍ ما يشير إلى رأيه في ترتيبه، ولكنَّه جمع أكثر موادِّه في غلافٍ ، وأودعه درجَ مكتبه إلى ميعادٍ ، ثمَّ عاجلتْه منيَّتُه ! وقد جمعتُ ما قدرت عليه بعد ، فأضفتُه إلى ما جَمَعَ المؤلِّف ، ورتَّبت كلَّ ذلك وهيَّأته للمطبعة ، فإن كان قد فاتني شيءٌ ممَّا ينبغي إضافتُه إلى ذلك الجزء ، أو قصَّر بي الجهد عن ترتيبه على الوجه الأمثل ؛ فمعذرةٌ إلى قارئه ، ولعلَّني ـ بمعونة القرَّاء ـ أستدرك في الطَّبعات التَّالية ـ إن شاء الله ـ ما فاتني في هذه الطَّبعة .

* * *

وللمؤلف في ذيل بعض الصَّحائف تعليقاتٌ ، ولي تعليقاتٌ غيرها اقتضاها مكانُها ، وموضوعُها ، فإذا رأى القارئ رمزَ التَّعليق في الصُّلب ، وفي الهامش نجماً ، أو نجوماً(*) (**)[1] فهو ممَّا علَّقتُه ، وإن كان الرَّمزُ رقماً ؛ فهو ممَّا علَّقه المؤلف ـ رحمه الله ـ لبيان معنىً ، أو تفسير كلمةٍ .

* * *

وإنَّ في الكتاب لفنّاً ، وفكراً ، وبياناً ، وإنَّ فيه لمواضع تقتضي البسط ، والتَّطويل في الحديث ، وإنَّ فيه لمذاهبَ في الإنشاء حقيقةً بالدَّرس والنَّظر ، ولكنِّي أَجتزِئ من ذلك كلِّه بالعرْضِ دون البيان ، لأدعَ لقارئه أن يقولَ ما يشاء ، ويحكم ؛ ثمَّ لأفسح المكان لمنشئ الكتاب أن يتحدَّث عن مذهبه في البيان ، وهو عليه أقدر .

محمَّد سعيد العَريان

---

(١) جعلنا أرقام التعليق في كل صفحة متسلسلة ، ورمزنا لما علَّقه الرافعي بـ(ع) ولما علَّقه محمد سعيد العريان بـ(س) وبقية التعليقات من عملي .